رسالة

في

فلسفة الأخلاق

و

المذاهب الأخلاقية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله حمداً يستوجب المزيد من إحسانه وفضله، والصلاة والسلام على نبيّه، محمّد الذي فتح الله له من كنوز غيبه، فارتوت أُمّته من فيضه، وعلىٰ آله كنوز أسراره، وحملة شرعه، ومكارم أخلاقه.

أمّا بعد: فهذه رسالة موجزة في فلسفة الأخلاق نتطرق فيها إلىٰ أهم المذاهب الأخلاقية، وقبل الخوض في الموضوع ، لابدّ من تعريف علم الأخلاق أوّلاً ، ثمّ نعرّج إلى تعريف فلسفة الأخلاق ثانياً، فنقول:

علم الأخلاق: هو العلم الباحث عن الفضائل والرذائل الروحية التي يكتسبها الإنسان بإرادة واختيار، فهذه الصفات هي موضوع علم الأخلاق، والغاية منها هي تحلية النفس بالفضائل وتخليتها عن الرذائل.

وأمّا السلوك العملي، فهو من آثار تلك الصفات من حسن وقبيح.

نعم ربما يطلق علم الأخلاق ويراد منه مجموع ما يصدر من الإنسان في حياته الفردية أو الاجتماعية من الأفعال، الذي يعرب عن فضيلة أو رذيلة نفسانية.

ما هي فلسفة الأخلاق؟

يمكن تعريف فلسفة الأخلاق بأحد أمرين على وجه مانعة الخلو:

١. هـو العلم البـاحث عن المبـادئ التصـورية والتصـديقيـة لهذا العلم، بمعنىٰ انّها توضـح المفاهيم الواردة في ذلك العلـم كما تسهل التصديق بالقضـايا الأخلاقية المبحوثة في علم الأخلاق.

٢. هو العلم الباحث عن مبـاني علم الأخلاق، وتبيين الأُسس التي يبتني عليهـا ذلـك العلم، فهـل الأخـلاق مبنيـة على الحسن والقبـح العقليين، أو على مذهب الجمال، أو الاعتـدال، أو اللذة، أو غير ذلك؟ فما لم يكن للعـالم الأخلاقي موقف حاسم حيال تلك المباني، لا يتيسر له عرض مذهب أخلاقي جامع.

المذاهب الأخلاقية

١ . المذهب الأخلاقي في الإسلام

أنّ الإنسان بفطرتـه يميّز بين الفضائل والرذائل، وأنّ منشـأ الأخلاق عبارة عن الانصيـاع لقضاء الفطـرة بالتحلّي أو بالتخلّي، وأنّ هنـاك أُموراً يـدرك العقل العملي حسنها وجمالها فيبعث إلى تحصيلهـا، كما أنّ ثمة أُموراً يدرك قبحهـا فيزجر عن فعلها، وهذا ما يعبّر عنه بمذهب الفطرة.

وثمّة مذاهب تبنت أُسساً أُخرى للأخلاق.

٢ . مذهب الجمال.

٣ . مذهب الاعتدال.

٤ . مذهب اللذة.

٥ . المذهب الكلبي (العزوف عن لذائذ الدنيا).

٦ . مذهب الحس الأخلاقي.

٧ . مذهب القوة.

١

المذهب الأخلاقي في الإسلام

قد احتدم النقاش في تمييز الفعل الأخلاقي عن غيره، وأسفر عن تأسيس مذاهب أخلاقية، سيأتي شرحها تباعاً.

والذي نحن بصدد بيانه حالياً هو تبيين موقف الإسلام في هذا المقام وانّ الفعل الأخلاقي يندرج تحت أي مقولة من المقولات، وما هو سماته وخصوصياته؟ فيقع البحث في مقامين:

المقام الأوّل: في بيان المقولة التي تندرج تحتها الأخلاق

وتوضيحه رهن بيان أُمور:

أ. الأخلاق سلوك نابع من ذات الإنسان

الأخلاق جمع الخلق، وهو يحكي عن أنّ الفعل الأخلاقي عبارة عن سلوك نابع من صميم الإنسان وذاته.

وعلى ذلك فالفعل الأخلاقي مظهر من مظاهر ما يكمن في وجود الإنسان، ويحكي عن حس باطني. فلو قام إنسان بمشاريع خيرية نتيجة ضغوط خارجية فلا يعد عمله هذا عملاً أخلاقياً، لأنّه لم ينبع من صميم ذاته أو من حس باطني،ولذلك تكون الأخلاق نحو سلوك حاكٍ عما يجيش في ضميره وكيانه.

نعم هذا القيد، قيد لازم دون أن ينحصر به.

ب. أنواع قضايا الحكمة العملية

قسّم الحكماء الإدراكات العقلية إلىٰ نظرية وعملية، فالمراد من الأُولى ما من شأنه أن يُعلم، والمراد من الثانية ما من شأنه أن يُعمل، ولكن الغاية من الأُولىٰ هي العلم، والغاية من الثانية هي العمل، فثمة قوة واحدة تدعى «العقل» وإنّما الاختلاف في مدركاته.

ثمّ إنّهم قسّموا قضايا الحكمة النظرية إلىٰ بديهية ونظرية، لأنّه لو كانت عامة القضايا غير بديهية لما استطاع الإنسان أن يحل مجاهيله ومشاكله، فالقضايا البديهية مفاتيح لحل مبهمات القضايا النظرية.

وطبيعة الحال تقتضي أن تكون الحكمة العملية علىٰ ذلك الغرار، فقضاياها بين بديهية تقف على صحتها أو سقمها عقول الناس قاطبة من دون إمعان نظر، كقولنا: العدل حسن والظلم قبيح. وغير بديهية تفك عُقدها من خلال البديهيات، والدليل على ذلك التقسيم في قضايا الحكمة العملية هو نفس الدليل في تقسيم قضايا الحكمة النظرية.

ج. حسن الفعل وقبحه عند العقل

إنّ العقل العملي يقسّم الأفعال إلى قسمين: بين حسن وجميل يطلب إيجاده، وقبيح ودميم يطلب تركه واجتنابه، هذا النمط من التقسيم نابع من صميم ذاته، فيميل إلى الأوّل لإحساس جمال في الفعل وحسن فيه، كما أنّه ينفر عن الثاني لإحساس قبحه ودمامة طبعه.

فإذا اتضحت تلك الأُمور، فنقول:

إنّ القيم الأخلاقية من مقولة الجمال، فالفعل الجميل نابع عن الإحساس

اللطيف، والروح الجميلة غير انّه ينبغي الوقوف على حقيقة الجمال.

قد صرح القدماء ان الجمال يدرك ولا يوصف، كما أنّ الملاحة كذلك، ولكن يمكن لنا الوقوف على واقع الجمال من خلال إمعان النظر في الأُمور الحسية الجميلة.

فالجمال الحسي رهن التوازن والتعادل بين أجزاء الموجود سواء أكان موجوداً عنصرياً أو نباتياً أو حيوانياً أو إنسانياً.

فإذا كانت الأجزاء متناسبة ومتناسقة، كل جزء يحتلُّ مكانه الخاص فهو جميل، هذا هوحال الجمال الحسي.

وأمّا الجمال المعنوي: فهو عبارة عن حسن الفعل النابع عن تعادل القوى وتوازن الاستعدادات. فإذا كان الإنسان متعادلاً في قواه، ومجتنباً عن الإفراط والتفريط في إعمالها، حينها تكون الروح مبدأً لصدور الأعمال الحسنة مثلاً: انّ الشهوة والغضب وحب الجاه والمال من أركان الحياة ولولاها لما قام صرحها، شريطة أن يستغلّها الإنسان بأسلوب معتدل. وعلى ضوء ذلك يُصبح الفعل الأخلاقي من مقولة الجمال.

ومما يؤيد انّ الأخلاق من مقولة الجمال هو انّ الإسلام يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، والمعروف ما عرفه الناس و المنكر ما أنكره الناس، وليس لعرفانهم وإنكارهم سبب سوى أنّ بعض الأفعال تتجلى في نظر الإنسان بصورة الحسن والبعض الآخر بصورة القبيح.

نعم هناك فرق بين الجمال الحسي والروحي.

فالجمال الحسي أمر خارج عن الاختيار، دون الجمال الروحي فانّه داخل في اختياره،فله أن يقوم بإقامة التوازن والانسجام في الميول النفسانية العلوية

والسفلية، حينها تصبح الروح جميلة، والسلوك المنعكس منها مثلها، كما أنّ له أن يقوم بعكس ذلك،حينها تصبح الروح شريرة، والسلوك الصادر منها كذلك.

ومع ذلك يمكن أن يقال انّ الفعل الأخلاقي من مقولة العدالة بشرط أن تفسر العدالة بالتوازن والانسجام.

إذا عرفت ذلك وانّ الأخلاق تندرج في مقولة الجمال أو الاعتدال، فلنتناول المقام الثاني بالبحث.

المقام الثاني:سمات المذهب الأخلاقي في الإسلام وخصوصياته

لقد ظهرت أنظمة أخلاقية متنوعة منذ العهد اليوناني القديم إلى عصرنا الراهن، ويرجع تاريخ تأسيسها في الغرب إلىٰ عهد الثورة الصناعية والنهضة الثقافية التي حلّت فيها التجربة مكانَ البرهان في الاستدلال على العلوم الطبيعية، وآل الأمر إلى ظهور فكرة تفكيك الدين عن السلطة، وبالتالي تفكيك الأخلاق عن الدين.

ففي ظلِّ هذه الظروف سادت أنظمة أخلاقية جديدة غير مبتنية على الدين معتمدة على ملاكات مختلفة، وسيوافيك بيانها في الفصل القادم بإذن الله.

والمهم هنا، هو بيان دعائم المذهب الأخلاقي في الإسلام وخصوصياته وسماته، وقبل الخوض في البحث لابدّ من طرح مسألة لها بالغ الأهمية في هذا الموضوع، وهو انّ الاطروحات التي يقدمها أي نظام أخلاقي رهن الوقوف على حقيقة الإنسان، لأنّ القضايا الأخلاقية التي يتبنّاها فإنّما يطرحها لغاية جلب السعادة إلى الإنسان والمجتمع، وتلك الأُمنية فرع معرفة ما يُسعد الإنسان عمّا يشقيه، فلولا تلك المعرفة لما نال المذهب الأخلاقي بغيته .

ثمّ إنّ الاختلاف الجوهري بين المذاهب الأخلاقية يرجع إلىٰ اختلاف الرؤى حيال الإنسان، فكان من المهم الإشارة إلى وجهة نظر الإسلام حول الإنسان. وقد قامت على عدة أُسس نجملها بما يلي:

١. الإنسان مركب من جسم و روح

إنّ العالم المادي ينظر إلى الإنسان من خلال منظار ضيق، وانّه موجود مادي منذ أن تشكلت نطفته في رحم أُمّه حتى خروجه إلىٰ هذا العالم الفسيح، وتكامله بالتدريج من الصبا إلى البلوغ والكمال ثمّ الشيخوخة والهرم إلى أن توافيه المنيَّة وينطفئ مصباح حياته، فهذه النظرة إلى الإنسان نظرة مادية صرفة، فلا يعلم من أين جاء؟ ولماذا جاء؟ وإلى أين ينتهي؟ فتجول تلك الأسئلة في ذهنه باطراد دون أن يجد لها حلولاً عند المادي.

وفي المقابل، فانّ الإلهي ينظر إلى الإنسان بما انّه موجود مركب من مادة ومعنىٰ، وجسم وروح، وبدن ونفس إلىٰ غير ذلك من التعابير المكررة التي تشير كلّ منها إلى زاوية من زوايا وجوده.

بل الحقّ أن يقال انّ الإنسان واحد متكامل، بدل القول بالتركيب، فواقع الإنسان هو الروح التي تستخدم البدن لقضاء حاجاتها، حيث ترىٰ بالعين، وتسمع بالاذن، ولكن الرائي والسامع الحقيقي هي الروح التي تستخدم هذه الأعضاء بغية إدراك الواقع الموضوعي.

و قد أقام فلاسفة الإسلام براهين دامغة على تجرد النفس وليس في الوسع طرحها في هذا المختصر، وإنّما نشير في هذه العجالة إلى آيتين كريمتين، تشيران إلى تجرد الروح عن المادة.

أ: انّه تبارك و تعالى يبين كيفية خلق الإنسان على الوجه التالي :

ويقول: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ* ثُمَّ جَعَلْناهُ نُطْفَةً في قَرارٍ مَكينٍ* ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا العَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنا الْمُضْغَةَ عِظاماً فَكَسَونَا الْعِظامَ لَحْماً﴾ وبعد ما ينتهي إلى تلك النقطة من خلق الإنسان، يغيِّر لحن الكلام، ويقول: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخالِقينَ﴾ .[١]

نرى أنّه سبحانه يصف هذه المرحلة من خلقة الإنسان بخلق آخر، وكأنّه يختلف عما سبق من مراتب الخلقة، وما هذا إلاّ لأجل وجود اختلاف جوهري بين تلك المرحلة، وما سبقتها من المراحل، وهو انّ المراحل الأُخر تصوّر الإنسان بأنّه موجود مادي أشبه بموجود حيٍّ له حركة طبيعية، ولكنّه بعد طيّه لتلك المراحل يصل إلى مرحلة تعلّق الروح به وفي هذه المرحلة تتبدّل المادة إلى خلق آخر، وهذا إن دل على شيء فإنّما يدل على امتياز تلك المرحلة عن سائر المراحل وليس هو إلاّ تجرد روحه ونفسه.

ب: انّه سبحانه يذكر في سورة السجدة شبهة منكري المعاد، وحاصل الشبهة:

انّ الموت سبب لتفسخ أعضاء البدن واندثار رميمه في أطراف العالم وأكنافه، وهو يلازم انحلال شخصيته، ومعه كيف يمكن إعادته ولو بجمع أجزاء بدنه المبعثرة في أصقاع العالم، فانّ اجتماع الأجزاء المتفرقة لا يعيد شخصيته الأُولى، بل يُضفي عليه شخصية ثانية مع أنّها ليست المسؤولة عن أعمال الإنسان الذي انحلت شخصيته.

---

١. المؤمنون: ١٢ ـ ١٤.

وهذه الشبهة هي التي نقلها الذكر الحكيم عن المشركين، قال: ﴿وَقالُوا أَئِذا ظَلَلْنا في الأَرْضِ أَئِنّا لَفي خَلْقٍ جَديدٍ بَلْ هُمْ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ كافِرُون﴾ .[١]

فهذه الآية تتضمن الشبهة والإجابة الإجمالية عنها، ولكن الجواب التفصيلي ورد في الآية التالية: ﴿قُلْ يَتَوفّاكُمْ مَلَكُ الْمَوت الَّذي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلىٰ رَبِّكُمْ تُرجَعُون﴾.[٢]

وهذه الآية تزيل الشبهة بالبيان التالي، وهو:

إنّ واقع الإنسان ليس هو البدن المتفرقة أجزاؤه، بل واقعه أمر محفوظ، وهو الذي يأخذه ملك الموت ويُرجعه إلىٰ ربه، وهو شيء لا يمسّه الانحلال ولا التغير ولا التبدُّل، فما يتبدل أو يتغير ليس هو واقع الإنسان، و ما هو واقع الإنسان فهو في معزل عن التفرق والانحلال، ويتضح ذلك إذا كان معنى التوفي هو الأخذ، يقول سبحانه: ﴿اللهُ يَتَوَفّى الأَنْفُسَ حين مَوتِها﴾ .[٣]

أي أنّ الله يأخذ الأنفس حين موتها، وفيما نحن فيه من الآية ينسب التوفي وأخذ الروح إلىٰ ملك الموت، ولا تنافي بين النسبتين، لأنّ ملك الموت جند من جنود الله سبحانه،ومأمور من قبله، والآية بصراحتها تكشف عن أنّ موت البدن ليس موت الإنسان، بل الإنسان باقٍ بعد الموت يتوفّاه ملك الموت ويحتفظ به إلى قيام الساعة.

إلىٰ هنا تبيّن انّ الرؤية الإسلامية حيال خلقة الإنسان هو انّه كائن علوي روحي باق بعد الموت عبر القرون إلىٰ يوم القيامة، وانّ الحياة لا تنقطع بالموت،

---

١. السجدة:١٠.

٢. السجدة:١١.

٣. الزمر: ٤٢.

وإنّما تمتد بنشأة أُخرى وهي الحياة البرزخية، ثمّ الحياة الأُخروية، فكما أنّ هناك عوامل تسعد الإنسان أو تشقيه في الدنيا، فهكذا الحال في الآخرة.

وفي هذه النقطة بالذات يختلف المذهب الأخلاقي في الإسلام عن سائر المذاهب التي تحدِّد الحياة في إطار مادي محدود، لا تتصور للسعادة معنىٰ إلاّ السعادة الدنيوية،فتجعل محور الأخلاق هو الالتذاذ الفردي أو الانتفاع الجماعي، وأمّا المذهب الأخلاقي في الإسلام والذي يرىٰ أنّ وراء الحياة الدنيا حياة أُخروية، وهناك سعادة وشقاء ، ينظر إلى الحياتين علىٰ حد سواء، ويبعث إلى مايسعده في كلتا النشأتين، ويزجره عما يشقيه فيهما، وسيوافيك توضيحه في بعض الأُصول الآتية:

٢. الإنسان موجود مختار

على الرغم من أنّ هناك فئة قليلة تصوِّر الإنسان انّه فاعل بالجبر وانّه فاقد للحرية والاختيار، إلاّ أنّ الأكثرية الساحقة تصوّره فاعلاً عالماً بفعله، ومختاراً بين الفعل والترك، وهذا غني عن اقامة برهان بعد شهادة الوجدان عليه.

وعلى ذلك نزل الذكر الحكيم: **﴿مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَساءَ فَعَلَيْها وَما رَبُّكَ بِظَلاّمٍ لِلْعَبيد﴾** [١] ويقول في آية أُخرى مبيّناً حريته واختياره: **﴿وَقُلِ الحَقُّ مِنْ رَبِّكُم فَمَن شاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شاءَ فَلْيَكْفُر﴾** [٢].

ولقد صبّ العالم الكبير زين الدين العاملي المعروف بالشهيد الثاني ﷺ مضمون الآية في قالب الشعر، وقال:

---

١. فصلت: ٤٦.

٢. الكهف: ٢٩

فقـد جـاء في القـرآن آيـةُ حكمـة تـدمِّرُ آيـاتِ الضـلال ومـن يُجبر
وتُخبر انّ الاختيـار بـأيـدينـا فمن شـاء فليؤمن ومن شـاء فليكفر

نعم ربما يقع موضوع الحرية في إطار المغالطة، ويقال انّ حرية الإنسان يحيط بها الغموض، لأنّه من جانب، خُلِقَ بلا مشية منه، كما أنّه خرج من رحم الأُم إلىٰ هذا العالم بلا ارادة منه، مضافاً إلى ذلك فإنّ شخصيته رهن مثلث الوراثة والثقافة والبيئة التي لكلّ منها تأثير في مصيره وتفكيره ومايختار من الأفعال.

ومن جانب آخر، يشهد الوجدان انّه موجود حرّ يمكن أن يهشم إطار المثلث المذكور ويفعل على خلاف مقتضاه

ولكن الحقّ هو الثاني، إذ ليس معنى حرية الإنسان انّه موجود مختار في عامة ما يرجع إليه من نواحي حياته، فخلقته وخروجه إلى الدنيا وتأثره بالأضلاع الثلاثة، أُمور خارجة عن اختياره دون أن تُخلّ بحريته إذا كان تعيين المصير في المستقبل بيده.

وعلى هذا، فالإنسان موجود مسؤول عن أفعاله، لما رزق من إرادة واختيار في جوهر ذاته، ولأجل هذه النعمة عرض الإسلام نظاماً أخلاقياً ينسجم معهما.

٣. تعديل الغرائز

خلق الإنسان مقروناً بغرائز علوية وسفلية، وفيه ميول متضادة، يطلب كل غير ما يطلبه الآخر، فهو موجود إلهي مثالي يميل إلى ماوراء الطبيعة والاتصال بمبدأ الوجود، كما يميل إلى العدل والصدق والوفاء وغير ذلك من الصفات العلوية التي تحكي عن فطرته، كما أنّه له ــ في الوقت نفسه ـ ميول حيوانية جامحة

كالشهوة والغضب وحب المال والثروة والأنانية، إلى غير ذلك من الأفعال الناشئة من الغرائز السفلية، وكل واحد من هذه الغرائز تشكّل دعامة وجود الإنسان ومحور حقيقته، فلو فُقد واحد منها لسقط النوع الإنساني في الهاوية، فالشهوة دعامة بقاء النوع، و الغضب آلة دفاع الشر، إلى غير ذلك من الميول.

وقد قام الإسلام بتعديل الغرائز فلم يحصر اهتمامه بالغرائز العلوية دون السفلية، أو بالعكس، و إنّما عدَّل بينهما، فالنكاح أمر حسن لكن في قالب العفة، والعبادة أمر حسن شريطة التجرد عن الرهبانية، و للإمام أمير المؤمنين عليه السلام كلام في خلق الإنسان من مواد مختلفة ، ننقل منه هذه الشذرات:

«ثمّ نفخ فيها من روحه فَمثُلَتْ إنساناً ذا أذهان يُجيلُها، وفكر يتصرّفُ بها، وجوارح يختدِمُها، وأدوات يُقلّبها، ومعرفة يفرق بها بين الحقّ والباطل والأذواق والمشامّ، والألوان والأجناس، معجوناً بطينة الألوان المختلفة، والأشباه المؤتلفة، والأضداد المتعادية، والأخلاط المتباينة، من الحرّ والبرد، والبلّة والجمود». [1]

٤ . ما هو ملاك القيم الأخلاقية؟

إنّ الوقوف على ملاك القيم الأخلاقية رهن أمرين:

الأمر الأوّل: معرفة الميول الباطنية في الإنسان

إنّ كلّ إنسان يجد في صميم ذاته انّ له ميولاً خاصة نحو أُمور، كالميل إلى إقامة العدل، و الوفاء بالمواثيق، و إجابة الإحسان بالإحسان، و إغاثة الملهوفين، إلى

١ . نهج البلاغة، الخطبة ١، صفة خلق آدم عليه السلام .

غير ذلك من الميول النابعة من البعد الملكوتي للإنسان.

كما أنّه يحس من صميم ذاته الانزجار من الظلم، ونقض المواثيق إلى غير ذلك من المنكرات العقلية.

والمعيار في تمييز الأخلاق عن اللاأخلاق هو مطابقة العمل لهذا النوع من الميول علىٰ نحو يصدر تلبية لهذه الميول الباطنية.

الأمر الثاني: السير على هدي الوحي

إنّ نور الفطرة والحس الباطني بحاجة إلىٰ دعمهما بنور الوحي، إذ ربما تكون الفطرة والعقل الباطني عاجزين عن درك الحسن والقبح، فبما انّ نور الوحي نور لا ظلمة فيه، صواب لا خطأ فيه، فلا محيص عن اقتفائه فيما إذا لم يكن للعقل هناك حكم خاص.

وقد أمر الإسلام بالمعروف ونهىٰ عن المنكر، وربما يعجز عن تشخيص المعروف من المنكر، فلا محيص له عن التمسك بأذيال الوحي، فالواجبات والمحرمات الشرعية من القيم الأخلاقية، التي قد يعرفها الإنسان بفطرته ونور عقله، وإلاّ فيكون الوحي هو المتبع.

وعلىٰ ذلك فالضابطة التي طرحها الإسلام في مجال تمييز الأخلاق عن اللا أخلاق، أمران:

أ: الميول الباطنية، ب: السير على نور الوحي وما يأمر به الشرع أوينهىٰ.

٥. العمل الصالح المقرون بنية خالصة

إنّ المذهب الأخلاقي في الإسلام يثمّن العمل الحسن الناجم من نية صادقة، كما إذا صلّى وصام تقرّباً من الله سبحانه، أو قام بمشاريع خيرية قربة إلى

الله وتلبية للعاطفة الإنسانية، فهذا النوع من العمل يعد من القيم الأخلاقية، فالعمل الحسن، هو النابع من نية صادقة لا يشوبها أي رياء.

وأمّا المذاهب الأخلاقية الأُخرى فإنّما هي تنظر إلىٰ ظاهر العمل فحسب دون أن تولي أهمية إلى الحوافز التي دفعت الإنسان نحو القيام به، فلو قام شخص بمشاريع خيرية لغاية كسب رصيد أكبر من آراء الناس في الانتخابات مثلاً أو في مجالات أُخرى فهذا النوع من العمل بما انّه لم ينبع من نية صادقة، بل من أنانية استحوذت عليه للوصول إلىٰ مآربه المادية، ليس له قيمة في الإسلام، وما ذلك إلاّ لأنّ العمل ثمرة النيّة، فلو كانت النية خالصة فالعمل حسن مهما كان ضئيلاً، وأمّا إذا كانت النية مشوبة بالرياء والسمعة فيحطّ من قيمة العمل مهما كان عظيماً، والآيات القرآنية تثبت هذا المدّعىٰ بوضوح نكتفي بآيتين: وردتا في عمارة المسجد الحرام.

كان المشركون في عصر الرسالة قائمين بتعمير المسجد الحرام لا لله سبحانه، بل لأجل كسب الوجاهة عند القبائل العربية التي كانت تحج كلّ عام وتزور المسجد الحرام، فنزل الوحي الإلهي على قلب النبي ﷺ يبلغه بأنّه ليس لهم أي حقّ في تعمير المسجد الحرام مع شركهم وكفرهم، وما ذلك إلاّ لأجل انّ نيتهم كانت يعوزها الإخلاص في العمل.

قال سبحانه: **﴿ما كانَ لِلْمُشْرِكينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَساجِدَ اللهِ شاهِدينَ عَلىٰ أَنْفُسِهِمْ بِالكُفْرِ أُولئِكَ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ وَفِي النّارِ هُمْ خالِدُونَ﴾** .[1] وفي الوقت نفسه يرى سبحانه ذلك الحق للمخلصين من عباده الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر، قال سبحانه: **﴿إِنّما يَعْمُرُ مَساجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَومِ الآخِرِ وَأَقامَ**

---

١. التوبة:١٧.

الصَّلاةَ وَآتى الزَّكاةَ ولَمْ يَخْشَ إلاّ الله﴾ .[١]

وهذا العنصر له أهمية بالغة في المذهب الأخلاقي في الإسلام دون أن تجد له أثراً يذكر في المذاهب الأخلاقية المادية الأُخرى، ولم يكتف الإسلام بذلك، بل جعل النية الخالصة مكان العمل إذا لم يكن الناوي قادراً على القيام به.

روي أنّ علياً لمّا أظفره الله بأصحاب الجمل، قال له بعض أصحابه: وددت أنّ أخي فلاناً كان شاهدنا ليرى ما نصرك الله به على أعدائك.

فقال له ﷺ: «أهوى أخيك[٢] معنا؟»

فقال: نعم.

قال: «فقد شهدنا. ولقد شهدنا في عسكرنا هذا أقوام في أصلاب الرجال وأرحام النساء سيرعف[٣] بهم الزمان، ويقوى بهم الإيمان».[٤]

إنّ اهتمام الإسلام بتصفية الباطن من خلال الترغيب إلى النية الخالصة والابتعاد عن النية المشوبة، يعرب عن عناية الإسلام بموضوع النية، وما ذلك إلاّ لأنّها مصدر العمل وروحه، فالنيات الصالحة مصادر الخيرات كما أنّ النيات الطالحة منابع الشرور.

قال أمير المؤمنين ﷺ: «أيّها الناس، إنّما يجمع الناس الرضا والسخط، وإنّما عقر ناقة ثمود رجل واحد فعمّهم الله بالعذاب لما عمّوه بالرضا، فقال سبحانه: ﴿فَعَقَروها فَأَصْبَحُوا نادِمين﴾[٥]».[٦]

وقال ﷺ: «الرّاضي بفعل قوم كالدّاخل فيه معهم،وعلى كلّ داخل في

---

١. التوبة:١٨.

٢. هوىٰ أخيك أي ميله ومحبته.

٣. .يرعف بهم: يجود بهم.

٤. نهج البلاغة: الخطبة ١٢.

٥. الشعراء:١٥٧.

٦. نهج البلاغة: الخطبة ٢٠١.

باطل إثمان: إثم العمل به، و إثم الرِّضا به». [١]

فالواجب علىٰ علماء التربية أن يـولوا أهمية كبرىٰ لهذا العنصر، وهو إصلاح الباطـن وغرس بـذور الإيمان في قلوب الأجيال الـذي من ثمـراته النيـة الخالصة والعمل الصالح بغية إقامة مجتمع صـالح وفاضل. يقول سبحانه: ﴿**وإنْ تُبدُوا ما فِي أَنفُسِكُمْ أو تُخْفُوهُ يُحاسِبْكُمْ بِهِ الله**﴾. [٢]

٦. القيم الشمولية المطلقة

إنّ المطلق والنسبي اصطلاحان رائجان في العلوم والفلسفة الإسلامية، فلو كانت القضية صادقة في جميـع الأزمنة والأمكنة وفي جميع الشرائط والظروف، فهي قضية مطلقة، كما هو الحال في القضايا الرياضية، فقضية ١+١=٢، قضية مطلقة لا ترىٰ أمامها أي رادع ومانع، والنسبي على العكـس، فإذا كانت القضية صادقة في ظروف خاصة، فالقضية صادقة صدقـاً نسبياً، مثلاً إذا شاهدنا قاعة واسعة في مدينة فيمكـن وصفها بالكبر والصغر معـاً، فإذا قيست القاعة إلى قـاعة أُخرى، وكانت الثانية أوسع منها بمراتب، تـوصف القاعةالأُولى بالصغر، وأمّا إذا قيست إلى قاعـة ثانية هي أقل مسـاحة، فتوصـف القاعة الأُولى بالكبر، ومـا هذا إلاّ لأنّ الصغر والكبر من الأوصاف النسبية.

إذا وقفت على ما نرمي إليه، فنقول:

إنّ القضايا الأخلاقية التي يتبنّاها الإسـلام هي قضايا كلية مطلقة صادقة في جميع الأزمنـة والأمكنة، وما ذلـك إلاّ لأنّ الإسلام يعتمد في استنتـاج القيم على

---

١. نهج البلاغة: قسم الحكم، برقم ١٥٤.

٢. البقرة:٢٨٤.

محورين مطلقين عامين شاملين هما:

١. الفطرة الإنسانية التي تتحد في جميع الأفراد.

٢. بلاغات الوحي ونوره الذي نزل لإنقاذ البشر من الضلالة إلى الهداية، وقال: ﴿يا أَيُّهَا النّاسُ إنّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً﴾ .[١]

وقال سبحانه: ﴿تَبارَكَ الَّذي نَزَّلَ الفُرقانَ عَلى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعالَمينَ نَذيراً﴾.[٢]

وقال سبحانه: ﴿الر كِتابٌ أنزلناهُ إِلَيْكَ لتُخْرِجَ النّاسَ مِنَ الظُّلُماتِ إلى النُّورِ بِإِذنِ رَبِّهِم﴾.[٣]

فالآيات تركز على أنّ الرسول ﷺ بُعث إلى الناس كافة ، إذ انّ الفرقان الذي هو تعبير آخر عن القرآن، نذير للعالمين، وبالتالي جاء الرسول ليخرج عامة الناس من الظلمات إلى النور، فيكون تشريعه عالمياً.

وثمة سؤال يثار وهو كيف يقال انّ القضايا الأخلاقية قضايا مطلقةمع أنّها تعد من القيم في ظرف دون ظرف. مثلاً: الصدق حسن، ولكنّه لا في كلّ زمن، فلو كان الصدق سبباً لهلاك الأبرياء فليس بحسن، بل الكذب ينقلب هناك من القبيح إلى الحسن، فهذا يدل على أنّ القضايا الأخلاقية في الإسلام قيم نسبية لا مطلقة؟

والجواب: إنّ الصدق حسن في جميع الأزمنة والأمكنة، غير انّه لما كان الصدق في ذلك المورد يقع ذريعة لقتل الأبرياء، فلا يجيزه العقل لا لقبحه بل لأجل دفع الظلم عنهم، وأمّا قبح الكذب فهو باق على قبحه حتى في ذلك

١. الأعراف:١٥٨. ٢. الفرقان: ١.

٣. إبراهيم:١.

الظرف الحرج، ولكنّه لما دار الأمر بين ارتكاب أحد القبيحين الأصغر وهو الكذب، والأكبر وهو قتل الأبرياء، فيقدِّم العقل، الأقلَّ قبحاً على الأكثر منه، كما هو الحال في باب التزاحم في باب الأغراض والمقاصد حيث يقدم الأهم على المهم، أو الأقل مفسدة على الأكثر مفسدة.

والحاصل: انّ الصدق في هذه الظروف أيضاً حسن،كما أنّ الكذب فيها أيضاً قبيح، غير انّ العقل لا يرخص العمل الحسن للحيلولة دون قتل الأبرياء، أويجوّز الكذب لدفع القبيح الأكبر.

٧. القيم الأخلاقية والحرص على إجرائها

إنّ أكثر المذاهب الأخلاقية تنطوي على التزامات، وتوصي باتّباعها، فمثلاً: تأمر بالصدق في الكلام،و الوفاء با لمواثيق،والنهي عن الكذب إلى غير ذلك من القضايا. ولكنّها لا تخرج عن إطار الإيصاء ولكن المنبع الأخلاقي في الإسلام، يتجلّى ـ وراء كونه منهجاً منسجماً مسايراً للحياة ضامناً للسعادة ـ في ضرورة العمل وفق تلك القضاياوالوصايا، وذلك بوضع ضمانات ووعد ووعيد في ذلك المجال.

فأغلب المناهج الأخلاقية لا تتجاوز عن كونها وصايا مجردة، لا تدعمها أي جنبة إجراء، إلاّ الحس الأخلاقي أو ما يعبر عنه بالوجدان ، ولكنّه لا يشكل دعامة قوية أمام إجراء القوانين بصورة صحيحة بل ينهار أمام التيارات النفسانية الجارفة التي تزيل كل رادع أمامها. مما يشكل ثغرة واضحة في كيان المذاهب الأخلاقية الوضعية.

أمّا المذهب الأخلاقي في الإسلام فهو ليس مجرد وصايا فحسب، ولا يقتصر في مقام الإجراء على الحس الأخلاقي، بل يعتمد أيضاً على قدرة فوق الطبيعة

قاهرة على كلّ شيء، تحاسب عمل الإنسان حقيره وخطيره، يوم تبلى السرائر وتكشف الحقائق ويتجسد عمل كل إنسان أمامه .

فهذا النوع من المنهج يعلوه الكمال حيث جمع بين العلم والإيمان، والتقنين والتنفيذ.

إلى هنا ظهر مجموع السمات التي يتمتع بها المذهب الأخلاقي في الإسلام، وإليك موجز ما سبق منها:

١ . الإنسان في النظرة الإسلامية مركب من المادة والمعنى، والبدن والروح، بل حقيقته تتقوّم بالروح، والبدن ليس إلاّ أداة للروح.

٢ . الإنسان فاعل مختار وما يقوم به من الأعمال إنّما تعد من القيم إذا قام به عن إرادة واختيار لا عن جبر وقسر، فلو أدّى ما عليه من الضرائب المالية بإجبار من الجهاز الحاكم فلا يعد عمله عملاً أخلاقياً.

٣. المذهب الأخلاقي قائم على تعديل الغرائز علوها وسفلها، وجعل الإنسان على صراط يتمتع بكافة غرائزه لكن بتعديل خاص ويعطي حق كل غريزة.

٤ . الملاك في القضايا الأخلاقية هو تطابقها مع الفطرة و نور الوحي.

٥ . العمل الحسن إنّما يعد حسناً ومن القيم إذا اقترن بنية خالصة بعيدة عن الرياء والسمعة.

٦ . المذهب الأخلاقي في الإسلام نظام عام يسود كافة المجتمعات الإنسانية دون فرق بين من غبر ومن حضر ومن يأتي في المستقبل.

٧. انّ المذهب الأخلاقي ليس مجرد وصايا وبلاغات فارغة عن أي قوة تنفيذية.

٢

مذهب الجمال

نظريـة الأخلاق عنـد أفلاطـون (٤٢٧ ـ ٣٤٦/ ق. م) مـن فروع سيـاسة المدن، فقد انتهى هـو من البحث في العدالة الاجتماعيـة إلى العدالة الفـردية التي هي الأخلاق، والقيم عند أفلاطون تنحصر في أُمور ثلاثة:

١. العدالة

٢. الحسن.

٣. الحقيقة.

ومرجـع الثلاثة إلى الخير، فـالذي لـه قيمة ذاتية هـو الخير، والأُمور الثـلاثة تبسيط لهذا الأمر المعياري.

ثمّ إنّه ارجع العدالة إلى الحسن [١] من غير فرق بين العـدالة الاجتماعية أو الفرديـة، لأنّها توجد التـوازن المطلوب الـذي هو عبارة أُخـرىٰ عن الحسن، وعلى ذلك فـالحسـن إمّا محسـوس كجمال الـورد، أو معقـول كحسن الصـدق والأدب والتقوى والإيثـار وغير ذلك،، الـذي نعبّر عنه بالخير والأخـلاق الحميدة فهـو من مقولة الجمال.

ذهب أفـلاطون إلىٰ أنّ الأخـلاق أمـر واقعي، فـالأخلاقي مـن يدرك هـذه الأُمور الـواقعية ويكفي في التخلّـق بها معرفـة الخير عن الشر، فلو عـرف الإنسان

---

١. لاحظ ص ١٤ من وجود الصلة بين الجمال وتعادل القوى.

الخير يعمل به ومن لم يعمل فـإنّما هو لجهله، فلا محيص لنا مـن استئصال الفساد الأخلاقـي بالقضاء على الجهـل ومكافحة الأُميـة، وعلى ذلك فرأس الفضيلـة هو الحكمة والمعرفة، فكلّ فضيلة نوع من الحكمة، مثلاً الشجاعة عبارة عن معرفة ما يجب أن يخاف منه ومـالا يخاف، وانّ الفقه عبـارة عن العلم بـالحد الذي يجب أن يراعىٰ بـه اعمال الشهوات، كما أنّ العدالة عبـارة عن العلم بالأُصـول والضوابط التي يجب أن تراعىٰ في تنظيم رابطة الإنسان مع أخيه الإنسان.

فإذا كانـت الحكمة مبدأ للفضيلة، والمعـرفة منشأ للأخـلاق، فكلّ حكيم أخلاقي ولا ينفك عن الأخلاق. (١)

وحصيلة الكلام : انّ المذهب الأخلاقي لأفلاطون مبني علىٰ أمرين:

أ. لو انّ إنساناً وقف على الخير والشر علىٰ ما هما عليه،ففعله يكون علىٰ وفق الأخلاق دائماً ولا يخرج عن إطاره.

ب. انّ القضـايا الأخـلاقية ، قضـايا كليـةعامـة شـاملة لجميع الظـروف والشرائط، ولذلك ليس لبني آدم إلاّ نوع من الحياة فيه سعادته لا أكثر.

هذه عصارة نظرية أفلاطون في الأخلاق، وقـد يؤاخذ عليها بأُمور أوضحها بأنّ العلم بالفضيلة أو الرذيلة لا يكفي في التخلّق ولا في الاجتناب عن الشرّ ما لم تدعمه التربية والتهذيب.

وبعبارة أُخرى: انّ العلم وإن كـان مـؤثراً في سعـادة النـاس وانّ قسماً من الجرائم نتيجة جهل الإنسـان بمضاعفاتها ونتائجهـا، ولكن نفس العلم لا يكفي لكبح جماح النفس، إذ ربَّ عالمٍ قد قتله جهله، وعلمه معه لم ينفعه. (٢)

---

١. ويل دورانت: تاريخ الفلسفة: ٣٤ـ٣٦.

٢. كلام مروي عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام.

فالغرائز السافلة للإنسان تدفعه إلى الحرص والثروة واللذة والشهوة التي ربّما تعمي بصيرة الإنسان، وقد قيل «إنارة العقل مكسوف بطوع الهوى»، و ربما يكون علم الإنسان ذريعة لارتكاب جرائم أبشع.

مضافاً إلى أنّ الأُصول الأخلاقية ليست رهن التعليم الكلاسيكي، بل إذا تجردت الإنسانية عن نزعاتها الشخصية والأنانية ربما تدرك هذه الأُصول بشكل أوضح، كما بيناه فيما سبق.

٣

مذهب الاعتدال

ذهب المعلم الأوّل أرسطو (٣٨٤ـ ٣٢٢ق.م) إلى أنّ كلّ إنسان يطلب بفطرته السعادة ويفرّ من الشقاء، والمراد من السعادة هو التمتع باللذائذ والابتعاد عن الآلام، دون أن يقتصر عليها بل يعم اللّذات والآلام العقلائية والروحانية.

وعلى ذلك فكلّ إنسان يطلب السعادة ويرفض الشقاء، بيد أنّ تحصيل السعادة لا يتم إلاّ عبْر علم الأخلاق.

يعتقد المعلم الأوّل بأنّ سبيل الوصول إلى السعادة عبارة عن التمسك بالاعتدال، ثم يمثل بالشجاعة التي هي وسط بين إفراط هو التهور، وتفريط هو الجبن، وبالكرم أو السخاء التي هي وسط بين إفراط هو التبذير وتفريط هو التقتير، والمناعة من الفضائل لوقوعها وسطاً بين التكبّر والتزلزل، ويمثل أيضاً بالعفة فانّها من فروع القوة الشهوية وتتوسط بين الخمول والشره، كما أنّ الحكمة ترجع إلى القوة العاقلة وهي حدّ وسط بين الجربزة والبلاهة، كما أنّ السخاوة حدّ وسط بين البخل والإسراف، كما أنّ التواضع حدّ وسط بين التكبر والتحقير [1].

فأرسطو على خلاف أُستاذه لا يقول بكفاية العلم والمعرفة في تحصيل الفضيلة، بل يعتقد بأهمية التربية في التحلّي بالأخلاق والفضائل.

---

١. انظر سير حكمت در اروبا: ١/ ٣٤.

وقد أورد على مذهبه مناقشات كثيرة أظهرها:

الأُولىٰ: انّ الفضيلة لا تدور علىٰ رحى الاعتدال في جميع الظروف والشرائط، إذ ربما لا يوجد بين السعادة والشقاء حدّ وسط، فالصدق فضيلة والكذب رذيلة دون أن يكون بينهما حدّ وسط.

فالعمل بالعهد حسن كما أنّ نقض الميثاق قبيح وليس بينهما حدّ وسط، ونظير ذلك طلب العلم، ومقابله الجهل.

فالأوّل حسن بمكان مهما أفرط في تحصيله، وليس الحسن هو الحد الوسط، وليس المراد من الإفراط في العلم ترك سائر الوظائف بل تحصيل العلم مع ما عليه من الوظائف الفردية والعائلية.

الثانية: انّ العلم بالحد الوسط من بين الصفات أمر صعب المنال، لأنّ الوقوف على الحد الوسط فرع معرفة قوى الإنسان الروحية والجسمانية، ثمّ معرفة الحدّ الوسط منه، وهذا ليس أمراً سهلاً لكل من طلب التخلّق بالأخلاق الحسنة.

الثالثة: ربما يطرأ التزاحم بين تحقيق الاعتدال بين الصفات فلم يعط ضابطة على ضوئها يتم تقديم إحداهما على الأُخرى.

ثمّ إنّ الحكيم النراقي (١١٢٨ ــ ١٢٠٩ هـ) يؤيد مذهب الاعتدال في كتابه «جامع السعادات» ويقرّره بصورة واضحة تستغرق صحائف كثيرة، نقتبس منها ما يلي:

إنّ القوىٰ في الإنسان أربع: قوة نظرية عقلية، وقوة وهمية خيالية، وقوة سبعية غضبية، وقوة بهيمية شهوية.

والصورة المعتدلة من اعمال هذه القوى هي الفضيلة، والانحراف عن الوسط امّا إلى طرف الإفراط أو إلى طرف التفريط، رذيلة، فيكون بازاء كلّ فضيلة

جنسان من الرذيلة، ولما كانت أجناس الفضائل أربعة، فتكون أجناس الرذائل ثمانية.

فالحكمة هي الحدّ المتوسط، وهي العلم بحقائق الأشياء علىٰ ما هي عليه، وهو موقوف على اعتدال القوة العاقلة ، فإذاحصلت له حدّة خارجة عن الاعتدال (كالجربزة) يخرج عن الحد اللائق ويستخرج أُموراً دقيقة غير مطابقة للواقع، ويكون العلم بهذه الأُمور ضد الحكمة من طرف الإفراط، و إذا حصلت له بلادة لا ينتقل إلى شيء فلا يحصل لها العلم بالحقائق وهذا هو الجهل، وهو ضده من طرف التفريط.

والشجاعة هي الصورة المعتدلة للقوة الغضبية، والتهور والجبن طرف الإفراط والتفريط.

والعفّة هي الصورة المعتدلة من القوة الشهوية، والشره والخمول في طرفي الإفراط والتفريط، فانّ الشره عبارة عن الانهماك في اللذات الشهوية على ما لا يحسن شرعاً وعقلاً. والثاني في طرف سكون النفس عن طلب ما هو ضروري للبدن. [١]

١. جامع السعادات:١/ ٧٥ و ٩٩.

المذاهب الأخلاقية

٤

مذهب اللّذة

إنّ مـذهب اللّذة مـن المذاهب الأخلاقيـة المهمة والـذي ظهر في العهـد اليوناني القديم، وقد تطور ذلـك المذهب عبر الزمان خصوصاً في العصور الأخيرة في الغرب ، ولذلك ظهـرت مذاهب أخلاقية أُخرى كلّها مـن فروع هذا المذهب، فكأنّها تعود إلى أصل واحد.

وهذه المذاهب عبارة عن:

أ. مذهب اللّذة الشخصية المنسوب إلى «أرسطيفوس».

ب. مذهب اللّذة الشخصية المحددة المنسوب إلى «أبيقور».

ج. مذهب المنفعة المنسوب إلى «جيريمي بنتام».

د. مذهب العاطفة المنسوب إلى «آدم اسميت»

هـ. مذهب القانون المنسوب إلى «راسل».

١ . مذهب اللّذة الشخصية

هذا المذهب منسـوب إلى «ارسطيفوس» الذي ولد حـوالي ٤٣٥ ق.م وجاء إلى أثينا سنة ٤١٦ ق. م وإلى إيجينـا سنة ٣٩٩ ق. م، وكان رفيقاً لأفـلاطون وتوفي سنة ٣٥٠ ق. م.

وخلاصة مذهبه في الأخلاق إنّ كلّ إحساس عبارة عن حركة فيمن يحسّ، فإن كانت هذه الحركة ناعمة نشأ الشعور باللّذة، وإن كانت خشنة نشأ الشعور بالألم، وإذا أصبحنا في حالة سكون لم نشعر بلذة ولا بألم. ومن بين هذه الأحوال الثلاثة : اللّذة، الألم، الخلو من كليهما، الأفضل هو اللّذة قطعاً. تشهد علىٰ ذلك الطبيعة نفسها، لأنّ الجميع يطلبون اللّذة ويتجنبون الألم. والخلو من الألم لا يمكن أن يكون أفضل من اللّذة، لأنّ عدم الحركة هو عدم شعور، كما في النوم، فالخير إذن هو اللّذة، والشرّ إذن هو الألم، و ما ليس لذة ولا ألماً فليس بشر ولا بخير.

ولهذا كانت الغاية من الأفعال جلب اللّذات ولا يمكن الخلو من الألم ان يكون غاية، ولهذا أيضاً جعلوا واجب الإنسان هو تحصيل أكبر قدر من اللّذات، ولكن في اللحظة الحاضرة، لأنّ اللّذة المقبلة، واللّذة الماضية كلتيهما غير موجودة، انّ الحاضر هو ملكنا، أمّا الماضي والمستقبل فليسا لنا، ولهذا ينبغي أن لا نحفل بهما.

وكلّ لذة خير ولا تفاضل بين اللذات، ولا بين الأُمور المولّدة للّذات، فليكن الجالب للّذة ما يكون، المهم انّه يجلب لذة فقط.

إنّ اللّذات كلّها سواء ولهذا لا يفرّقون بين لذّات تسمح بها العادات والقوانين، وأُخرى لا تسمح بها.انّ كلّ لذة مطلوبة حتى لو انتجها فعل قبيح.[1]

وصفوة القول: إنّ كلّ عمل يلائم الغريزة الإنسانية ويلتذ من ورائه حاضراً فهو حسن، وكلّ عمل يوجب ألماً حاضراً فهو قبيح، وأمّا ما لا يوجب واحداً منها فهو خارج عن موضوع الأخلاق.

---

١. عبد الرحمن بدوي: موسوعة الفلسفة: ٢/ ٢٤١.

يلاحظ عليه بأُمور:

أوّلاً: أنّ مؤسس هذا المذهب نظر إلى الإنسان من زاوية ضيّقة، وهي أنّ تلبية الغرائز الحيوانية تستتبع لذة، وكبح جماحها تستتبع ألماً، ولكنّه غفل في الوقت نفسه عن أنّ للإنسان وراء بُعْده المادي، بعداً روحانياً ملكوتياً لا صلة له بالغرائز المادية، ولا باللذائذ الحسية.

فالعارف بالله سبحانه المستغرق في جلاله وجماله، يلتذّ بعبادته وخضوعه أمام الله سبحانه أكثر مما يلتذُّ به الإنسان المادي من أعمال غريزة من الغرائز السفلية.

كما أنّ الإنسان المثالي الذي يحب للغير ما يحبه لنفسه إذا قام بإجراء العدالة ونبذ الظلم، واجتثاث جذورها يلتذّ بعمله هذا أكثر مما يلتذ به الإنسان الغارق في الشهوات والرغبات النفسية، فعلىٰ صاحب هذا المذهب أن يفسر اللّذة بالأعم من المادية والمعنوية،وموافقة الطبع ومنافرته،وبالطبع السفلي والعلوي، وعندئذٍ يخرج عن كونه رجلاً مادياً حسياً لا يؤمن بما وراء الحس، كما هو المعروف من صاحب هذا المذهب.

ثانياً: لو افترضنا انّ الأخلاق تتلخص في اللّذائذ الشخصية والفردية غير انّ اعمال الغرائز دون تعديل من قِبل العقل والقوانين الوضعية، يوجب الفوضىٰ في المجتمع، ويقلب اللّذة ألماً، فلابدّ أن تحدّد مشروعية اللّذة بما يحدّده القانون والرأي العام، فعندئذ لا تكون كلُّ لذّةٍ مقرونة بالسعادة، كما هو المعروف من أنّه فسر السعادة التي هي مذهب استاذه سقراط، باللّذة.

ثالثاً: لماذا خصّص اللّذة باللّذة الحالية وألغى الماضي والمستقبل مدّعياً بأنّ كلاً من اللّذة المقبلة أو اللّذة الماضية كلتيهما غير موجودة، مع أنّه إذا كانت اللّذة

مورثـة للألم في المستقبل، فـلا تصحّ تسميتها أخـلاقاً وسعادة بحجـة انّ السعادة عبارة عن اللّذة الفعلية أو أنّ اللّذة المقبلة غير موجودة.

رابعاً: هذا المذهب ـ لم يأخذ بنظر الاعتبار ـ اللّذات المعنوية، فلو أخذت بنظر الاعتبار لعمَّت اللّذة الدنيوية والأُخروية ، وبما ان مؤسّس هذا المذهب كان مادياً حسياً لم يؤمن إلّا باللّذة الدنيوية، كما عرفت في الأمر الأوّل.

ثمّ إنّ أتباع هذا المذهب المعروفون بـ«القورينائيين» تصرفوا في هذا المذهب ووقعوا في حرج من قبوله بأكمله، وقالوا:

إذا كانت كل لذّة خيراً فلا شكّ أيضاً في أنّ في بعضها مزيداً من الخير عن الأُخرى، فبطل قوله فلا تفاضل بين اللّذات.

كما أنّـه لا سبيـل إلى إنكـار أنّ بعـض اللّـذات تشترى بـآلام كبيرة، ولهذا اضطروا إلى الإقرار بأنّ بلوغ سعادة خالية من الأحزان أمر عسير المنال، ولهذا قالوا فيما بعد، انّ العمل السيء هـو الذي ينشأ عنـه ألم أكثر مما تنشأ لـذة، ولهذا ينبغي على العاقل أن يمتنع عن الأعمال التي تحرمها القوانين المدنيةوالرأي العام. [١]

٢. مذهب اللذة الشخصية المحددة

مؤسس هـذا المذهب هو «ابيقور» وهو نفس مـذهب« ارسطيفوس»، غير انّه أدخل فيه عنصراً خاصاً وهومدخلية العقل في تحديد تسمية اللذة بالأخلاق.

ولد «ابيقور» عـام ٣٤١ق.م. في مدينة «شامِس» ثم انتقل إلى «اثينـا» فأقام مدرسة في حـديقته المشهورة باسـم «حديقة ابيقور». وظل يـدرِّس بها حوالي ست وثلاثين سنة، وتوفي سنة ٢٧٠ ق.م.

---

١. موسوعة الفلسفة:٢/ ٢٤١؛ تاريخ فلسفة اليونان والروم، فردريك كابلستون: ١/ ١٤٥.

وهو في الفلسفة تلميذ «ذيمقراطيس» الذي يقول: إنّ الأصل في كلّ معرفة هو الحس، وعن طريقه وحده تتمّ المعرفة، و إنّ الأجسام مؤلفةمن أجزاء لا تتجزأ.

واللازم هنا دراسة الأخلاق الابيقورية، وخلاصتها انّ «ابيقور» يفرّق بين أنواع عدة من اللذة والألم، فهو لا ينظر إلى اللذة بحسبانها اللذة الحسية الصرفة، التي يجدها الإنسان في الإحساس المباشر بما هو ملائم في اللحظة والزمن المعينين بل يفاضل بين اللّذات بعضها وبعض، وبين الآلام بعضها وبعض، فيجعل بعض الآلام أفضل من بعض اللّذات، لأنّ في احتمال هذه الآلام ما يؤدي إلى لذة أكبر، ولأنّ في تجنب هذه اللّذات ما يؤدي إلى تجنب آلام أكبر.[١]

إنّما يجب أن نحسب حساباً إلى جانب الآلام واللّذات في ذاتها، للّذات والآلام المترتبة عليها، فإذا كنا نجد لذة تنتج ألماً تأثُرنا به أشد بكثير من تنعُّمنا وتملينا باللّذة الأُولىٰ، كان علينا أن نتجنب هذه اللّذة حرصاً علىٰ تجنب ألم أكبر، و إذا كان بعض الآلام من شأنه أن ينقضي إلىٰ لذة درجتها أكبر من درجة الألم المنتج لها، كان علينا أن نعاني هذا الألم حرصاً علىٰ تحصيل هذه اللّذة الكبرىٰ.

إنّ المذهب اللذّي عند أبيقور يختلف كل الاختلاف عن المذهب اللذي عند القورينائيّين[٢]، فهؤلاء كانوا يطلبون اللّذة كائناً ما كان نوعها، أو درجتها، أو النتائج المترتبة عليها، ولم يكونوا ينظرون إلى اللّذات بوصفها تكون كلاًّ واحداً متصلاً بلذات الإنسان، بل كانوا ينظرون إلى هذه اللّذات كأشياء مفردة مستقلة بعضها عن بعض، وكأنّ لحظات الحياة الإنسانية المتتابعة مستقلة بعضها عن بعض، حتى ليعطي الإنسان أو ليجب عليه أن يعطي كلّ لحظة استقلالها وقيامها بذاتها. ولا داعي إذاً للنظر إلى ما يترتب عليها مما يجري في لحظات تالية.

---

١. موسوعة الفلسفة: ١/ ٨٦.

٢. لاحظ ص ١٧٢.

أمّا الأبيقوريون، فعلى العكس من ذلك ينظرون إلى لحظات الحياة الإنسانية المتتابعة بحسبانها تكوّن وحدة، فيضطرون بالتالي إلىٰ جعل اللحظات المكونة للحياة تعتمد الواحدة منها على الأُخرى.

وبالتالي يجب أن نراعي اللحظة التالية، ونحن ننظر إلى اللحظة السابقة، فإذا كانت الحال على هذا النحو، فقد يكون ما تتصف به لحظة مستقلة عن غيرها ومنظوراً إليها بوصفها وحدة مستقلة، مخالفاً كل المخالفة لما يجب أن ننظر به إلى هذه اللحظة بوصفها جزءاً من كل. [1]

انّ هذا المذهب يفارق المذهب الأوّل في أمرين بعد اشتراكهما في أنَّ مناط السعادة هو اللّذة:

الأول: إدخال عنصر العقل في وصف الشيء باللّذة، فاللّذة المستتبعة ألماً كثيراً ليس بلذة.

الثاني: انّه يجب أن يأخذ بنظر الاعتبار معدَّل المجموع الكلي للّذات التي يصادفها الإنسان، فلو كان شيء لذيذاً حالياً ومؤلماً في المستقبل فهذا ليس بلذّة.

يلاحظ على ذلك أوّلاً: أنّ المذهب وإن كان أسلم من المذهب الأوّل ولكنّه يشاركه في أنّه جعل محور الأخلاق هو الإنانية واللذة الشخصية، لكن محدّدة بقضاء العقل باعمالها، مع أنّ هناك أُموراً معنوية يلتذ بها الآخرون كإغاثة الملهوفين وإعانة المنكوبين.

وهذا يعرب عن أنّه نظر إلى الإنسان كارسطيفوس من زاوية ضيقة وهي الالتذاذ بالغرائز الحيوانية، غير انّ ارسطيفوس جعل مطلق اللّذة ملاك السعادة، ولكن أبيقور جعل اللّذة محددة بحدين كما عرفت.

١. موسوعة الفلسفة: ١/ ٨٦ ـ ٨٧.

وثانياً: أنّ مؤسس هذا المذهب إذا كان إلهياً يجب أن يفكر في اللذائذ والآلام الأُخروية، فالملاك الذي أدخله في المذهب يلزم أن يعمّ اللذائذ والآلام الأُخرويّة.

لكن أكثر الباحثين في المسائل الأخلاقية ـ وللأسف الشديد ـ قد غفلوا عن هذا الجانب.

٣. مذهب المنفعة[١]

هذا المذهب منقول عن «جيريمي بنتام» (١٧٤٨ـ ١٨٣٢) زعيم القائلين بمذهب المنفعة ولد في «لندن» ودرس القانون مهنة أبيه ، واعتنق المذهب النفعي وطبّقه في أهم كتبه «مدخل إلىٰ مبادئ الأخلاق والتشريع».

ويدعو «بنتام» إلى الأخذ، بالقانون وإخضاعه لاختبار حساب المنفعة بهدف زيادة سعادة الناس، وإنقاص ما يعانونه، ويقيم مذهبه في المنفعة على مبدأ نفسي: ان الطبيعة أخضعت الإنسان لحكم سيّدين مطاعين ، هما: الألم واللّذة، وانّهما يتحكمان في كل ما يفعله أو يقوله أو يفكر فيه، وانّه يستوي في ذلك مع بقية المخلوقات لكن الإنسان يتميز بتطبيقه لمبدأ المنفعة، بمعنى انّ ما يعود عليه باللّذة المستمرة أو تزيد به لذته على الألم الذي يستحدثه فهو خير، وإنّ ما يترتب عليه ألم مستمر أو ما زاد فيه الألم على اللّذة فهو شر.

لكن كيف نوفّق بين ما يحقّق للفرد السعادة وبين الصالح العام؟ وكيف نقنع الناس بالتصرف بما يؤدي إلى السعادة العامة؟ والإدراك السليم يقضي بأنّ

---

١. كان ذكر هذا المذهب في هذا المقام لأجل صلته بمذهب اللّذة، وإلاّ كان موضعُ ذكره حسب التسلسل الزمني غيرَ هذا المقام.

منفعة المجتمع شاملة لمنفعة الفرد و من ثَمَّ مقدمة عليها، ولهذا ينبغي أن يكون شعارنا في المقارنة بين اللّذات والمفاضلة بين ما تحقّقه للفرد، وما تحقّقه للجماعة، تحقيق أكبر قدر من السعادة لأكبر عدد من الناس، وحينئذٍ يكون لزاماً على القانون أن يتدخل لاستحداث نوع من الانسجام المصطنع بين صالح الفرد والصالح العام. [١]

وحاصل هذا المذهب يتلخّص في أُمور:

الأوّل: انّ الخير يتلخّص في اللّذة المستمرة أو ما يزيد لذته على الألم الذي يحدثه، كما أنّ الشر يتلخّص فيما يترتب عليه ألم مستمر أو ما زاد فيه الألم على اللّذة.

الثاني: انّ الخير بهذا المعنى لا يتحقّق إلاّ إذا تم للصالح العام وأدّى إلى السعادة العامة، فإذا دار الأمر بين صالح الفرد، و بين التصرف لصالح المجتمع يقدم الثاني على الأوّل، لأنّ منفعة الفرد تنطوي في منفعة المجتمع.

الثالث: انّ شعار المذهب بين ما تحقّقه للفرد وما تحقّقه للجماعة هو تحقّق أكبر قدر من السعادة لأكبر عدد من الناس، وحينئذٍ يكون لزاماً على القانون أن يتدخل لاستحداث نوع من الانسجام بين المصلحتين.

نقد وتحليل

إنّ هذا المذهب هو نفس مذهب اللّذة الذي شيّد أركانه «ارسطيفوس» ثم أعقبه «أبيقور»، بيد انّ الفارق بين هذين المذهبين هو انّ مذهب اللّذة ركز على اللّذة الفردية وغضّ النظر عن اللذة الجماعية، مما شكل ثغرة واضحة في كيان

١. عبد المنعم الحفني: الموسوعة الفلسفية: ١١١؛عبد الرحمان بدوي: موسوعة الفلسفة : ١/ ٣٦٤.

مذهب اللّذة الذي كان يدور على الأنانية والغفلة عن مصالح المجتمع.

أمّا مذهب المنفعة، فقد تمكن من ملء هـذه الثغرة من خلال تقرير حقيقة وهي أنّ منفعة المجتمع شاملة لمنفعة الفرد ومقدمة عليها.

ولكن هنـاك سؤالاً: وهـو انّ تقديـم النفع الجماعي، هـل هو وسيلـة للنفع الفردي الذي ينطوي في نفع الجمع، أو هو غـاية هدف؟ فعلى الأوّل تعود الأنانية بأجلى مظاهـرها، وحينها يتحـد هذا المذهب مع مذهـب اللّذة، غير انّ المذهب السابـق لم ينبس عن النفع الجماعي ببنت شفـة، ولكنّه تمخّض عن ذلـك غير انّه أخذه واجهة للّذة الفردية.

وعلى الثاني يكون نزيهاًعمّا ذكرنا من الإشكال.

هذه هي حصيلة مذهب المنفعة إلاّ أنّها لا تخلو من مناقشات.

الأُولى:انّ تخصيص إطـار الفعـل الأخـلاقي بما يـرجـع نفعـه إلى المجتمع تخصيص بلا وجه، بـل ثمة صفات محمودة تعد من أفضل الأفعـال الأخلاقية مع أنّها لا صلة لها بالمجتمع، كالأُمور التالية:

أ. عدم الخضوع للظلم الذي يعبر عنه بإباء الضيم

ب. عـزّة النفس وكـرامتهـا، أعني: من لا يخضـع لسفلة النـاس مـن أجل كسب حطام الدنيا.

الثانية: إذا كان معيـار الفعل الأخلاقي هـو «جلب قدر أكبر مـن السعادة لأكثر عدد من الناس» فهو أمر مبهـم وبحاجة إلى المزيد من البيان، فما هو المراد من أكثر عدد الناس؟ فهل المراد هو الكثرة العددية أو الكثرة النوعية؟ ولو كانت كثرة عـددية فما حدها، فلـو كان هناك عمل يتم لصـالح ٥١ وينتهي بضرر ٤٩، فهل هو عمل أخلاقي؟ وعلى الثاني فما هـي الكيفية المعتبرة التي يتم على ضوئها

عـدُّ العمل أخلاقيـاً، مثـلاً إذا كان عمـل يتم لصالـح ١٠٪ من أسـاطين العلم والمعرفة و ضرر ٩٠٪ من سائر أبناء المجتمع.

الثالثة: انّ ثمة أعمال لا تظهـر نتائجهـا بهذه السرعة إلاّ بعد طـي سنوات عديدة، فلا يمكن لهذا المذهب أن يجيـب على أنّ هذه الأعمال، هل هي أخلاقية أو غير أخلاقية مالم تظهر نتائجها لصالح العام أو لضرره.

٤. مذهب العاطفة

إنّ المذهب العـاطفي جـاء كتعـديل لمذهب المنفعـة العامـة، حيث كـان الأساس فيه هو انّ نفع الفرد ومصالحه مندرجـة في المنفعة العامة، وهذا النوع من التفكير مبني على إشباع رغبة الأنانية، وكلّ فعـل يصدر عن ذلك المبدأ فلا يكون فعلاً أخلاقياً، ولذلك صار روّاد المذهب العاطفي إلى تعديل تلك النظرية، وهم: «آدم اسميـت» (١٧٢٣ـ ١٧٩٠ م) صاحـب النظـريـة الاقتصاديـة و «آرثـر شوبنهاور» (١٧٨٨ـ ١٨٦٠م) الفيلسـوف الألماني،و «اغوسـت كونت» (١٧٩٨ ـ١٨٥٧م) الفيلسوف الفرنسي.

هؤلاء زعماء ذلك المشرب وروّاده وحاصل نظريتهم كالتالي:

إنّ كلّ فعل يصدر من الإنسان وليس هناك غاية إلاّ الفاعل فهو خارج عن إطار الفعل الأخـلاقي بل لا يوصف بـالحسن والقبح، وإنّما الفعل الأخـلاقي ما يكون له صلـة بالجمع، فلو كان الفعـل صادراً عن أحاسيس إنسانيـة، أو كانت الغاية من الفعل هو انتفاع الغير فهو فعل أخلاقي.

وعلى ذلك فيشترط في الفعل الأخلاقي أحد أمرين:

الأوّل: أن يكون الهدف من الفعل هو الغير لا الفاعل نفسه.

الثاني: أن يكون المبدأ لصدور هذه الأفعال هي الأحاسيس الإنسانية التي جُبِّل عليها الإنسان.

وباختصار انّ الفعل الأخلاقي ما يكون الغاية فيه هو انتفاع الغير، أو يكون المبدأ لصدوره الإحساسات الإنسانية نحو الغير، والفرق بين التعبيرين، هو انّ الغير تارة يلاحظ باعتباره علة غائية وأُخرى باعتباره علة فاعلية.

نقد وتحليل

وربما يؤخذ على ذلك المذهب بأنّه ليس كل عمل صادر عن العواطف الإنسانية عملاً أخلاقياً، ولذلك لا يعد فعل الأُم بالنسبة إلى رضيعها فعلاً أخلاقياً، أو فعل الوالد بالنسبة إلى حفظ ولده إلى غير ذلك، فانّ هذا النوع من العاطفة مشترك بين الإنسان والحيوان.

وأظن انّ المذهب العاطفي يخص الفعل الأخلاقي بالصادر عن عاطفة عامة فلا يعم عاطفة الأُم بالنسبة إلى ولدها،وذلك لأنّ تلك العاطفة تختص بولدها ولا تعم ولد الغير ، وهكذا الوالد بالنسبة إلى المحافظة علىٰ أبنائه.

نعم العواطف العامة التي لا تختص بفرد دون فرد، إذاكانت مبدأ لصدور الفعل أو كان الغير هو الغاية من فعل الفاعل، فهذا النوع من الفعل يوصف بالأخلاقية.

والذي يمكن أن يؤخذ على ذلك المذهب هو انّه فسر الفعل الأخلاقي بالفعل الصادر عن العواطف الإنسانية مع أنّ هناك أفعالاً أخلاقية لا يصحّ لفيلسوف إنكار كونها كذلك، مع أنّها لا صلة لها با لمجتمع، وهي إمّا من فضائل الأخلاق أو رذائلها، كالصبر والاستقامة في طريق الطاعة، أو في مقابل النوائب،

وترك المعاصي.

فالإنسان الذي يمسك زمام الغرائز الجامحة ويصمد أمام الضغوط التي تجابهه فهو إنسان أخلاقي وفعله فعل أخلاقي من دون أن يكون له صلة بالمجتمع.

ونظيره البخل للمال والضن بالعلم والإرشاد، فانّه من مساوئ الأخلاق مع أنّه لا صلة له بالمجتمع حيث لايريد الإضرار به وإنّما لا يوصل نفعه إلى الغير.

وعلى كلّ حال فهذه المعايير للأخلاق ناقصة وليست لها شمول لجميع الأفعال.

٥. مذهب القانون

لقد اشتهر الفيلسوف الانكليزي «برتراند راسل» (١٨٧٢ــ ١٩٧٠م) بآرائه ونظرياته الفلسفية ولا سيما في حقل الأخلاق، وعلى الرغم من ذلك فهو فيلسوف مادي لا يعترف بعالم الغيب ،وله منهج خاص في تفسير القيم والأخلاق ذكره في كتبه ورسائله، ومن أشهرها كتابه المعروف بـ «العالم الذي أراه».

وحاصل منهجه في الأخلاق: أنّ الإنسان موجود أناني يطلب كلّ شيء لنفسه ويدور سعيه وجهده حول هذا المحور، فالنفع الشخصي هو كعبة آمال كلّ إنسان يعيش على هذا الكوكب، وهذا أمر لا يمكن تجريد الإنسان عنه.

ومن جانب آخر ليس له في الحياة الاجتماعية مناص عن رعاية الأُصول والقوانين التي تسمى بالوظائف والتكاليف. فيجب على كلّ إنسان رعاية حقوق الآخرين واحترام شخصيتهم إلى غير ذلك ممّا يعد وظيفة اجتماعية.

ولا يخفى أنّ هناك تزاحماً بين النفع الشخصي والاحترام لحقوق الآخرين، إذ

كثير ما يصطدم النفع الشخصي بحقوق المجتمع ، فكان لابد من تقديم تنازلات وترجيح حقوق الآخرين على الانتفاع الشخصي من أجل تسوية النزاع.

إنّما الكلام في وجه التقديم، فهناك مذهبان:

أ. مذهب المثاليين وهو أنّ العقل له قابلية ادراك الحسن والقبح ولذلك يأمره العقل بأنّ الكرامة في حفظ حقوق الآخرين وغض النظر عن النفع الشخصي، وهؤلاء يتناولون الأخلاق علىٰ أساس القيم العقلية.

ب. مذهب النفعيين وهو أنّ النفع الشخصي يكمن في احترام حقوق الآخرين، وانّه لولاه لعمّت الفوضى المجتمع الإنساني ويحرم الفرد حينها من منافعه الشخصية.

ثمّ إنّ «راسل» يختار هذا المذهب ويعود ويمثل انّ من وظيفة الجار أن يحفظ مال جاره ولا يسرقه، لأنّ النفع الشخصي يدور علىٰ هذا إذ لو سرقه لقوبل بمثله أيضاً، وهكذا سائر الوظائف الاجتماعية فانّ في رعايتها جلب المنفعة للإنسان.

ومجمل القول أنّ الانتفاع الشخصي هي أمنية كلّ إنسان ولا ينالها إلاّ في ظل احترام القوانين الكفيلة بتأمين حقوق المجتمع بأسره والتي فيها يكمن النفع الفردي.

إنّ «راسل» لما كان فيلسوفاً ذا اتجاه مادي يرجح أن يكون أساس الحياة مبنياً على ترويض المجتمع علىٰ رعاية القوانين واحترامها والانصياع الكامل لها بغية نيل منافعهم الشخصية، وهو عنده أرجح ممّا عليه المثاليون من علماء الأخلاق من توعية الناس بقبائح الأعمال وحسنها وضرورة الإتيان بالحسن والانزجار عن القبيح، وما ذلك إلاّ لفقدان معيار الحسن والقبح ـ عنده ـ حتى يعرض الأفعال

عليه، لأنّ الحسن عبارة عمّا يميل إليه الإنسان والقبيح ما يتنفر عنه، لكن الكلام في ما هو المعيار للرغبة والانزجار؟ فليس هناك شيء يرغب إليه كلّ الناس أو ينزجروا عنه، إذ ربّ شيء يكون فيه نفع شخصي وضرر على الآخرين فيرغب الأوّل وينفر الآخرين، فانحصر المعيار في الحب و البغض الشخصيين أو النفع والضرر الفرديين، فإذا لم يكن هناك معيار كلي مطلق فلنضرب على ما ذكره المثاليون من الدعوة إلى الحسن والنهي عن القبيح صفحاً ولنرجع إلى ما قلناه وهو توعية الناس بغية احترام القوانين الاجتماعية، وليس للأخلاق معنى سواه.

تقييم النظرية

١. انّ تسمية هذا المنهج بالمنهج الأخلاقي غريب جداً، فانّ الأخلاق عبارة عن القيم التي تكون بنفسها مطلوبة للإنسان سواء جرّت النفع أم لا، وأمّا الأخلاق التي تدور على محور النفع الشخصي وتكون مطلوبة لأجل درّها منافع للإنسان، فليست هذه أخلاقاً، وإنّما هي مقتضى غريزة من الغرائز الإنسانية. ولو صحّ ما ذكره «راسل» فتصبح كلّ القيم التي يفتخر بها «راسل» وغيره في خطاباته من لزوم نشر السلام في العالم وتوثيق أواصر الأخوة أمراً باطلاً وشعارات جوفاء، مع أنّ المعروف انّ «راسل» كان ممن ينادي بنشر السلام في العالم وتكريس الجهود لمحو الجوع والأُميّة والتخلّف عن العالم.

٢. انّ ما ادّعاه من أنّ مصالح الفرد تكمن في مصالح المجتمع علىٰ صواب، ولكن إنّما ينفع إذا كان هناك توازن بين القدرات والقوى كما في مثال الجار، وأمّا إذا اختل التوازن وكان أحد الطرفين ذا قدرة واسعة والطرف الآخر في غاية الضعف علىٰ نحو يعلم القوي بأنّ الضعيف لا يقدر على الإضرار به، فما هو المحفّز للقويّ على رعاية حقوق الضعيف، وليس هناك أي وازع أمامه.

وعلى هذا الأساس نشاهد اليوم من هضم حقوق الدول الضعيفة من قبل الدول الكبرىٰ فينهبون ثروات الدول الفقيرة دون اكتراث ودون أيّ وازع لعلمها بعدم استطاعة الدول الفقيرة أن تنال حقوقها المهدورة أو أن تقابل بالمثل.

فما سمّاه أخلاقاً يقتصر علىٰ نطاق محدود من دون أن يكون معياراً عاماً لكافة الشرائط والظروف.

٣. انّ ما ذكر راسل من إنكار معيار الحسن والقبح حتىٰ يكون هو الأساس للقيم والأخلاق من الضعف بمكان لوجود احتمالات ثلاثة:

أ. الحسن والقبح بمعنى ما يرغب إليه الفرد أو يرغب عنه بملاك انّه يؤمّن منافعه الشخصية أو لا يؤمّن.

ب. الحسن والقبح ما يؤمّن المنافع النوعية من دون نظر إلى المنافع الشخصية علىٰ وجه يكون الإنسان محوراً لتمييز الحسن عن القبح مع قطع النظر عن الفرد ومنافعه أو مضاره.

ج. الحسن والقبح عبارة عن النظر إلى الشيء من زاوية خاصة وهو التجرد عن كلّ نزعاته، فعندئذٍ يرى في نفسه ميلاً نحو أُمور ورغبة عن أُمور أُخرىٰ والذي نعبّر عنها بالبعد الروحي أو الملكوتي للإنسان.

فهذا الفيلسوف تصور أنّ المعيار الأوّل هو الملاك للحسن والقبح وغفل عن المعيارين الآخرين اللّذين لا يدوران على النفع الشخصي بل الثالث الّذي لا يدور حول النفع والضرر بل يدور حول النظر إلى القضية مع قطع النظر عن مضاعفاتها وآثارها.

ثمّ إنّ ما ذكره «راسل» قد سبقه الفيلسوف الالماني «هيجل» (١٧٧٠ـ ١٨٣١م) حيث فسر الأخلاق بالانقياد للقوانين السائدة، فحدّد النفع الشخصي

مع المصالح الاجتماعية ويترك مصالحه في حدود المقررات والقوانين الموجودة، ويحترس عن إعمال الميول التي تخالف العدل والقانون.

يقول في هذا الصدد: إذا كانت الإرادة الشخصية منافية للحقّ الذي هو عبارة عن إرادة المجتمع فلو قدَّم الثانية وأخَّر الأُولىٰ وطبّق ميوله على الحقّ والقانون، فقد عمل بالأخلاق، فلو خالط الحقّ ـ الذي هو أمر خارج عن ذات الإنسان ـ نفسه وذاته فهذا هو الأخلاق، فليس الأخلاق مجرّد العمل بل يجب أن ينبع من النية على احترام القانون ويجعل نفعه الشخصي تابعاً للقانون.

يلاحظ عليه: أنّ ما ذكره بُعدٌ خاص للأخلاق، وهو تطبيق الميول الشخصية على القوانين لصالح الإرادة العامة، وهناك رذائل وفضائل لا تمس بالقانون كالغرور والكبر والحسد والبخل، وكان من المفروض أن يفسِّر الفضائل والرذائل الأخلاقية ومنابعها وآثارها وكيفية تعدّدها.

نعم لو قال« هيجل» بمقولة «كنت» من تقسيم الأخلاق إلىٰ قسم يعد جزءاً من علم الاجتماع وقسم آخر يختص بعلم الأخلاق لكان لكلامه مفهوم تام.

«والأخلاق إمّا أن تهدف إلى البحث عن قوانين الحوادث الأخلاقية وتكون عندئذٍ شطراً من علم الاجتماع، مادام غرضه المعرفة الوضعية بالطبيعة البشرية، فردية وجمعية، و إمّا أن يهدف علم الأخلاق إلى تحديد غاية الإنسان في سلوكه، وتبيان أفضل سبيل لاستعمال قدرته على تغيير مجرى الحوادث، وهذا هو الفن الأخلاقي أو صناعة توجيه السلوك تبع معايير وقواعد عقلية يستقيها هذا الفن العملي من معطيات علم الاجتماع». [1]

---

١. العمدة في فلسفة القيم: ١٩٠

٥

المذهب الكلبي

هذا المذهب على طرف النقيض من كون الإنسان موجوداً مدنياً اجتماعياً، له رغبة بالنسبة إلى التنعم مما منحه الله سبحانه، ولذا كانوا يرون السعادة أن يعدل الإنسان عن خيرات الدنيا، وأن ينزل عن مكانته الاجتماعية،ويعيش عيشة مرتاض لاصلة له بالدنيا وما فيها

وقد كان لهذا المذهب دعاة قبل الميلاد منهم «ديوجانس»(٤١٣ـ ٣٢٧ق.م) كان هو حريصاً على الزهد تبعاً لأُستاذه «انستانس»، وكان الثاني يحتقر العلوم كأُستاذه ويريد الناس على أن يروّضوا أنفسهم على الفضيلة فيجيدوها.

وخلاصة القول في حقّهم: إنّهم كانوا يعيشون كالمرتاضين، فيلبسون لباس عامة الشعب، ويرسلون شعر الرأس واللحية، ولمّا تغيّر الزي الشعبي بتأثير المقدونيين، احتفظوا هم بزيّهم، فكان دلالة عليهم، وكانوا يحملون العصا بأيديهم والجراب فوق ظهورهم، ويطوفون في التماس قوتهم كالشحاذين المحترفين أو كرهبان الهنود، وليس لهم من مأوى سوى المعابد وغيرها من الأمكنة العامة. وكان فيهم كثير من الشذوذ، مثل أن يقف الواحد منهم عرياناً تحت المطر في برد الشتاء، أو يمكث في شمس الصيف المحرقة، ليظهر قوة احتماله وما إلى ذلك، كانوا يغشون المجالس ويتطفّلون على الموائد فيجابهون الحضور بنقائصهم في قول

جريء إلى حد البذاءة، لا يستحيون ولا يفرّقون بين المقامات، بل يدعون انّهم في كل ذلك يؤدّون مهمة كلّفهم بها الإله تزوس، هي ملاحظة العيوب والتشهير بها، ويتخذون من اسمهم تشبيهاً، فيقولون إنّهم حراس الفضيلة ينبحون على الرذيلة، كما ينبح الكلب الحارس عند الخطر. [١]

إنّ المذهب الكلبي في الأخلاق ليس مذهباً يلائم طبيعة الإنسان، بل هو على جانب الضد مما فطر عليه الإنسان من الحياة المدنية، فهو بكلمة موجزة يضاد الفطرة، ولا يستحق تسميته با لمذهب الأخلاقي، ولعل هذا صار سبباً لظهور الرهبانية في المسيحية وانزوائها في الأديرة والصوامع واجتنابها عن لذائذ الدنيا، يقول سبحانه في ردّ عقيدتهم: **﴿وَرَهْبانيَّةً ٱبْتَدَعُوها ما كَتَبْناها عَلَيْهِمْ إلاّ ابْتِغاءَ رِضْوانِ اللهِ فَما رَعَوْها حَقَّ رِعايَتِها فَآتَيْنا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ﴾**. [٢]

وقال رسول الله ﷺ: «لا رهبانية في الإسلام». [٣]

وشعار الإنسان المؤمن هو ما هتف به القرآن: **﴿ربّنا آتِنا فِي الدُّنيا حسنةً وفِي الآخرةِ حسنةً وقِنا عذابَ النّار﴾**. [٤]

---

١. يوسف كرم: تاريخ الفلسفة اليونانية: ٢١٢.

٢. الحديد:٢٧.

٣. مستدرك الوسائل: ١٤/ ١٥٥، الحديث ٢ نقلاً عن دعائم الإسلام: ٢/ ١٩٣، الحديث ٧٠١.

٤. البقرة: ٢٠١.

٦

مذهب الحس الأخلاقي

لقد ابتكر «عمانوئيل كنت» مذهباً خاصاً في الأخلاق يرجع حصيلته إلى أنّ سمة الفعل الأخلاقي عبارة عن العمل بالفعل بنية انّه أداء للتكليف الذي وجهه ضمير الإنسان إليه، ولا يكون له حافز ودافع غير أداء التكليف من دون أن يلاحظ حسن الفعل أو قبحه، أو كونه ذا مصلحة أو مفسدة، أو ذا لذة ومرارة أو دعوة العاطفة إليه، فقد أبدع ذلك المذهب شاطباً على الملاكات المختلفة التي كان فلاسفة اليونان والروم عليها.

كان الرأي السائد في عصر «كنت» هو انّ الحس منبع الإلهام، أو انّه لا يوجد في الذهن إلاّ ويوجد في الحس قبله، فكأنّ الذهن مخزن يرد إليه العلوم من الخارج عن طريق الحواس الخمسة الظاهرية، وقد اشتهر في عصره قولهم: «لايوجد في الذهن شيء إلاّ وقد وجد في الحس قبله».

ولم يرض «كنت» بهذا المذهب وجعل العلوم الإنسانية على قسمين:

قسم يرجع إلى ما قبل الحس والتجربة.

وقسم آخر يرجع إلى الحس والتجربة، وأحكام العلوم الطبيعية من قبيل الثاني، وأمّا أحكام الأخلاق فهي من قبيل الأوّل التي يوحيها الحس الأخلاقي ويبعث الإنسان إلى الفعل أو الترك، فيأمر بالعدل والصدق وحفظ الميثاق، وجزاء الإحسان بالإحسان، كما يزجر عن الظلم ونقض الميثاق، وجزاء الإحسان بالسوء.

ثمّ إنّه يشترط في الفعل الأخلاقي أُموراً ثلاثة:

الأوّل: أن يكون الفعل اختيارياً، فالفعل الصادر عن إكراه واضطرار لا يعد فعلاً أخلاقياً وإن كان ربما يوصف بالحسن.

الثاني: أن يكون الفعل مطابقاً للوظيفة والتكليف الذي يوحيه الضمير إلى الإنسان.

الثالث: أن يكون الدافع إلى العمل هو الحس الأخلاقي ونية امتثال الأمر الأخلاقي. مجرداً عن كلّ دافع سواه. وهذا الشرط هو الذي يصرّ عليه «كنت» وكأنّه دعامة مذهبه الأخلاقي.

ويوضح ذلك بأنّ الفعل الذي يصدر من الإنسان لغاية من الغايات ككونه مقتضى الجمال أو الحكمة أو اللذة أو نتيجة الاستشعار بالعاطفة، ليس فعلاً أخلاقياً، بل ربما يعد فعلاً عقلانياً، وإنّما يوصف به إذا كان الإنسان فارغاً عن كلّ داعٍ إلى العمل غير الإتيان به لأجل امتثال التكليف الذي كلّفه به وجدانه.

فالبائع والمشتري اللّذان يمارسان البيع والشراء لغاية إمرار المعاش فلا يمس عملهما بالأخلاق وفاقاً وخلافاً، ولكن لو دفع المشتري للبائع بدل دينار واحد، عشرة دنانير عن غفلة، فقام البائع بإرشاده إلى خطئه ورد الزائد عليه فهو عمل أخلاقي نابع من الإحساس بالتكليف، كما أنّه إذا تغافل عن هذه الزيادة ولم يخبر المشتري بها، فعمله يعدُّ عملاً لا أخلاقياً.

فالفعل الأخلاقي هو الفعل النابع عن العمل بالتكليف، وأمّا الفعل الصادر عن الميول و الغرائز الباطنية التي تطلب عملاً مناسباً لنفسها فلا يكون موصوفاً بالأخلاق أو ضدّ الأخلاق. هذه خلاصة نظرية «كنت» في الأخلاق.

نقد وتحليل

أوّلاً: إذا كانت سمة الفعل الأخلاقي هو القيام به بدافع العمل بالتكليف من دون أن يتأثر الإنسان بوازع داخلي أو عامل خارجي، فهذا النوع من الفعل لا يقوم به إلّا الأمثل فالأمثل من الناس، مع أنّ «كنت» بصدد تبيين الأخلاق لعامة الناس.

انّ الأكثر لا يقومون بالعمل إلاّ بدافع داخلي أو حافز خارجي، فالفعل إذا كان إجابة للغريزة أو مطلوباً لمن يخاف مخالفته يقوم الإنسان به دون ما إذا تجرد عن كلا الدافعين. اللهم إلاّ إذاكان إنساناً مثالياً متجرّداً عن كل ميل و نزوع.

وثانياً: أنّ الإتيان بالفعل لأجل حسنه أو تركه لأجل قبحه، أوفق بكونه فعلاً أخلاقياً مما فسره «كنت» فانّ الفاعل في الصورة الأُولى يكون فاعلاً عالماً واعياً بوصف الفعل فيشعر بحسنه ويأتي به، وهذا بخلاف الإتيان به لأجل تلبية نداء الباطن، حيث يأتي به لا عن وعي ولا شعور، وأيّهما أفضل وأقرب إلى الأخلاق.

وثالثاً: أنّ تخصيص الفعل الأخلاقي بما يوحيه نداء الضمير، تفسير له بوجه أخص، إذ هناك أعمال كثيرة داخلة في إطار الأخلاق وليست من تلك المقولة، كأعمال الصالحين المؤمنين بالله ورسوله حيث يقومون برفع عيلة الفقراء ببناء المستشفيات والمدارس والمرافق العامة، فالداعي لهم هو كسب رضا الله سبحانه أو كون الفعل حسن في ذاته، فهذا النوع من الفعل أخلاقي ولكنّه خارج عن الإطار الذي حدّده «كنت».

هذه بعض التأملات في ذلك المذهب، ولعلّه هناك اشكالات أُخرى يعلم حالها مما ذكرنا.

٧

مذهب القوّة

الإنسان الكامل في منهج فريدرش نيتشه (١٨٤٤ـ ١٩٠٠م) هو الإنسان المقتدر القاهر الغالب، ولعلّه تبع في مذهبه ما نقل عن سوفسطائية اليونان حيث كانوا يفسّرون الحقّ بالقوة، فالقدرة والغلبة آية الحق، و الضعف والانهزام آية الباطل، وهؤلاء لم يكونوا يتصورون للعدل والظلم مفهوماً غير هذا، فمنطق القوة هو العدل، ومنطق الضعف هو منطق الباطل، ولهذا كانوا يدعون الناس إلى اكتساب القوة والقدرة.

وقد كان هذا المذهب مطموسَ الذكر حتى جاء «نيتشه» فأحياه وراح ينكر الحسن والقبح بتاتاً، إلاّ حسن شيء واحد وهو القوة والقدرة، وكان يدعي أنّ الدين من مخترعات الضعفاء اخترعوه للحد من نفوذ الأقوياء، فاخترعوا مفاهيم الجود والرحمة والمروءة والإنسانية والعدالة كي يعيشوا تحت ظل هذه المفاهيم ويرقّقوا قلوب الأقوياء، وادّعاؤه هذا علىٰ طرف النقيض مما يدّعيه «كارل ماركس» إذ كان يدّعي أنّ الدين من صنع الأقوياء لاستغلال الضعفاء.

يقول نيتشه: ما الخير؟ كلّ ما يعلو في الإنسان بشعور القوة، وإرادة القوة، والقوة نفسها.

ما الشر؟ كلّ ما يصدر عن الضعيف.

ما السعادة؟ الشعور بأنّ القوة تنمو و تزيد ، وبأنّ مقاومة ما، قد قضي عليها.

الضعفاء العجزة يجب أن يُفْنُوا، هذا أوّل مبدأ من مبادئ حبنا للإنسانية، ويجب أيضاً أن يساعدوا علىٰ هذا الفناء. (١)

وعلى ضوء ما ذهب إليه نيتشه فالمفاهيم الإنسانية كالمساواة والعدالة والإيثار كلّها مفاهيم تحول دون وصول الإنسان إلى القوة حتى مساواة المرأة بالرجل، فكان يعتقد أنّ المرء هو الموجود الأقوى والمرأة خلقت لخدمة الرجل فحسب، وقد استلهم منهجه هذا عن «شارل دارون» الذي طرح نظرية تطور الأنواع على أُصول أهمها:

نشوء التنازع بين أفراد نوع واحد أوّلاً، والبقاء للأصلح والأقوى ثانياً، فزعم انّ هذا أصل في الحيوان والإنسان علىٰ حدّ سواء، فكأنَّ عالم الطبيعة يغربل ما فيه من الأصناف والأنواع ويزيح الضعيف عن حلبة الوجود ويُبقي القوي المقتدر، وهكذا الحال في المجتمعات الإنسانية فهي تحاول دائماً حذف الضعيف وإبقاء القوي.

يقول نيتشه: إنّ إرادة الحياة أسمى الإرادة وأقواها، ولا تعبر عن نفسها في التنازع التعس من أجل البقاء بل في إرادة القتال، إرادة القوة والسيطرة. (٢)

ثمّ يضيف بأنّ الحب والإحسان ونظائرهما التي يبذلها الآباء للأبناء تحول بين الإنسان وتكامله، لأنّ هذه الأعمال تحافظ علىٰ وجود الضعفاء وعدم حذفهم من المجتمعات، فما دعا إليه سقراط الحكيم من العفة والعدالة والحب، بل ما دعا إليه سيدنا المسيح من الحبّ والعشق كلّها تصد عن ظهور الإنسان الكامل في المجتمع. (٣)

---

١. عبد الرحمان البدوي: الأخلاق النظرية: ٢٣٩، ط الثانية عام ١٩٧٦؛ موسوعة الفلسفة:٢/ ٥١٤.

٢. العمدة في فلسفة القيم:١٢٨.

٣. انظر في الوقوف علىٰ مذهبه كتاب «سير حكمت در اروپا»: فقد نقل الشيء الكثير من أقواله وعباراته.

وهذه النظرية ممّا يأسف لها العقل السليم، كيف وقد هبط الإنسان من مقامه السامي وصار حيواناً يتنازع في البقاء ويسعىٰ لمحو الضعيف إبقاءً لنفسه، فإذا كان الحيوان الكامل هو الباطش الفاتك فالإنسان الكامل أيضاً هو القوي الذي لا يرحم الضعيف ويحاول محوه وإفناءه.

أفيرضىٰ إنسان ذومسكة بهذه النظرية، فلو كان الإنسان الكامل هو الإنسان القوي الذي يجعل الدنيا كلقمة سائغة لنفسه، فلازم ذلك إلغاء الأُصول التربوية وإبطال القوانين الحقوقية ومجالس التشريع مادام الحقّ يدور مدار القوة والبطش والحكم لمن غلب.

نعم إنّ القوة إحدى القيم التي يجب على الإنسان السعي وراءها ليخرجه من ظل الضعف إلى عزّ القوة. يقول سبحانه: ﴿**وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رباطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ**﴾ [1] ولكنّها إحدى القيم لا القيمة المنحصرة والخلق المثالي.

فذلك الفيلسوف نظر إلىٰ شجرة الأخلاق التي لها أغصان كثيرة وأخذ بغصن واحد وقطع سائر الأغصان فصار الكمال عنده منحصراً في القوة.

بقيت نكتة جديرة بالإشارة وهي أنّ القوة وإن كانت من القيم لكنّها لا تعادل البطش وإجحاف الحقوق والاستئثار بالدنيا، وإنّما يراد منها القوة لإجراء العدل وإقامة القسط وحفظ الحقوق وصيانة كرامة الإنسان من الذلّ، فالحاكم القوي رصيد للعدالة يأخذ من الأقوياء حقوق الضعفاء ويبسط نفوذه على الظالمين ويحيي القيم الأخلاقية بقوته ومنطقه وسيفه وسنانه.

فالقوة الممدوحة التي هي من القيم ما يكون ملجأ للإنسانية ومحيياً للحقوق وسدّاً منيعاً أمام الظلم والظالمين.

---

١. الأنفال: ٦٠.

وقد قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في وصيته للحسن والحسين عليهما السلام : «وكونا للظالم خصماً وللمظلوم عوناً» (١).

وقال في كلام آخر له عليه السلام :

« ... لولا حضور الحاضر ، وقيام الحجة بوجود الناصر، وما أخذ الله على العلماء ألاّ يقارّوا على كِظَّة ظالم ولا سغب مظلوم ... » (٢).

والحمد لله رب العالمين

١ . نهج البلاغة: قسم الكتب، رقم ٤٧ .

٢ . نهج البلاغة؛ الخطبة: ٣.

فهرس محتويات

رسالة التحسين والتقبيح العقليين

العنوان	الصفحة

العنوان	الصفحة

العنوان	الصفحة

العنوان	الصفحة

العنوان	الصفحة

فهرس محتويات

رسالة فلسفة الأخلاق والمذاهب الأخلاقية

العنوان	الصفحة

العنوان	الصفحة